

# جزيرة الملغوشين

## برهان الخطيب

رائحة الجثث والزهور ، فتستوي امام اعينهم فيما بعد . . الاشياء كلها . لعل امرهم كما يؤكد كل من رآهم من الخارج يبدو مخيفاً ؛ رجال ، نساء ، اطفال - هؤلاء يظنون محتفظين بوجوههم سليمة الى حين - ما ان يستفحل المرض ويقطع شوطا ، قد يبلغ النصف من دورته العامة - لان بعضا منهم يشفون فجأة في نهاية الامر - حتى يتساوى الرجال والنساء والاطفال فتراهم وقد فقدوا شفاهم ، آذانهم ، انوفهم ، حدودهم ، اسنانهم ، اصابعهم ، تمحي باختصار شيئا فشيئا حتى يغدوا هياكل عظمية مغطاة بجلود يابسة مبرية . فاذا رآهم احد من غير قاطني الجزيرة ظنهم سلالة غريبة من النسانيس لا علاقة لها بجنس البشر . ورغم ذلك فقد وجد من قال عنهم انهم نوع آخر من مخلوقات الله ، قد يفوقون البشر الاعتياديين احيانا حبا للجمال والحياة ، وحكاية فرات العكاب هنا تفصح عن الكثير .

مجتمع جزيرة المجذومين طبقات ، مثل كل مجتمعات الدنيا البعيدة الاخرى ، فيه الاغنياء والفقراء ، الراضون بقسمتهم والناقمون على اوضاعهم ، المتفائلون واليائسون ، فيه كل الاصناف سوى الاحزاب ، فيمكن القول عن مجتمعهم الموحد امام الداء انه نموذجي في هذا الضرب ، وإن كانت مكانة المسؤول الاداري عن الجزيرة موضع شك وارتياب ، فهو ان لبي طلبات قاطني الجزيرة من الصابون والدواء والغذاء فله كل الصفات المثلى وإن تأخر او تردد في تلبيةها ، لأمر في نفسه او لطارئ خارجي فهو طاغية ، متعسف ، لارضاء منه ، حتى اصبح في عين قاطني الجزيرة بمكانة رئيس دولة . الجهاز الاداري هنا ، ومنه الشرطة والاطباء والمسؤول الاداري عن المستعمرة ، هم من المصابين ايضا ، حالهم حال الجميع ، ولا فرق بين هؤلاء وغيرهم الا بالحظوة امام اصحاب الامر في العالم الآخر . تحيي التموينات والرسائل الى الجزيرة مرة في الاسبوع ، بمد الجسر ، ودون ان يفتح باب ، او يخطو احد بين هذا الصوب وذاك ، يلقي بها الى القاطنين عبر نافذة تفتح خصيصا لذلك في مبنى الادارة ، من غير ان تلامس ايدي الغرباء يدا او شيئا من عالم المستعمرة ، فالعدوى لا تحتاج الى تأشيرات للسفر . ثم يمضي اولئك الاجانب بعد ان يسمعوا من المصابين الشكاوى والطلبات المعتادة المكرورة ، واما الرسائل فلا حق لهم بتوجيهها الى العالم الآخر ، فهي قد تحمل العدوى ايضا الى السالمين ، واما من يريد ابلاغ اهله الخطاب ، إن ظلوا على اتصال به ، فقد يكلف احدا من اولئك الغرباء او من القادمين لزيارة مرضاهم ، الذين يقفون ايام الزيارات على الشاطئ الآخر يتبادلون الكلام معهم من بعيد بصوت مرتفع ، ليحرر له مكتوبا يرجوه ايداعه البريد بالعنوان الذي يفصح به اليه .

والى هذا ، ليس غير قدوم قاطن جديد الى الجزيرة يحرك ساكنها ، واما اذا كان القادم من هناك من جنس النساء فقل على دنياها السلام ذلك

اذا كان البشر يبدأون حياتهم في الحاضرة ، ويواصلونها في الآخرة فملعونو هذه الجزيرة لا علاقة لهم بهذه او تلك ، بزمن او مكان خارج حدود مفاهم ، ذلك انهم يعيشون في مستعمرة الجذام . .

الذين يعيشون خارج المستعمرة لا يعرفون شيئا عن شأنها ، اما الذين يعيشون على ارضها فقد عطبت حواسهم منذ دهر طويل ، فبدا لهم ما حوهم امرا جد طبيعي ومقبولا . لقد ابتلوا بما ابتلي به النبي ايوب عليه السلام ، هكذا اقتنعوا انفسهم ، صبر عشرين عاما ، ومنهم من صبر ثلاثين وعندما حانت معجزة الشفاء لم يعد يرغب بهجر المستعمرة ، فحواله الان عياله وماله ، ومن يرغب بذلك اذا لم يبق من اصابعه ، وقد تأكلت على مر الزمن هنا ، سوى تنوءات ينظف بها مزاعل لثته المتهرثة ، كما كان يفعل ذلك من قبل بعيدان الثقب في تلك الايام التي اصبحت الان غريبة ، بعيدة ، منسية .

تقع المستعمرة في جزيرة بجنوب البلاد . قريبا من مدينة كبيرة ، فتحيطها المياه من كل جانب ، الاجسر قديم يجمعها الى اليابسة ، يمد عند قدوم التعيينات والرسائل من العالم الاخر . تجري الايام هنا كما في كل مكان ، سوى قليل اختلاف ، فقاطنو الجزيرة لم يعودوا يمضغون الطعام مثلا كما يفعل الآخرون ، لان عليهم ان يضعوا ايديهم بالتأكيد امام افواههم اثناء الاكل كي لا تسقط مضغ الطعام منها . . فهم بلا شفاه منذ امد بعيد ، وهذا لم يمنعهم بالطبع من مواصلة الكلام ، فقد تكونت لهم شاءوا ام ابوا ، لغة جديدة ، ذات المفردات القديمة ، لكنها منطوقة الان بايقاع جديد ، فاذا ارادوا قول : « محمد مات » مثلا ، وهو آخر من ارتحل عنهم ، قالوا : « محمد مات » او : « مدد هات » او غير ذلك من الكلام الذي يعني ما يجري في واقع الامر ، وإن كان منطوقة مختلفا تماما عن المعنى ربما . ولكن الجميع ما كانوا آبهين لما ينطقه غيرهم ، فقد كان كل منهم يعرف ما يجري في حقيقة الامر ، وإن لم يجدوا بينهم من يستطيع التعبير عن ذلك بدقة ووضوح آن تلك الأيام الحوالي البعيدات .

لو كان الامر يتوقف عند هذا الحد هان ، فمن مظاهر الداء انهم لا يفقدون شفاههم حسب ، بل ويبدأون ايضا ، وفي الوقت نفسه ، بفقدان آذانهم ايضا ، يتساقط منها مع مرور الايام قشور وغبار ، مرئي وغير مرئي ، ومع الحكمة المستمرة تصغر آذانهم شيئا فشيئا حتى يختفي الصيوان تماما ، وهذا لا يمنع ان يظنوا قادرين على السماع وفهم ما يجري حولهم ، ولكن ليس بالدقة التي كانوا يفعلون بها ذلك من قبل . فصوت تساقط المطر مثلا او اهتراز الاغصان او هسيس النار لم يعد له مكان في احساسهم . كذلك الامر بالنسبة لأنوفهم ، الا ان ما يجري معها امر اكثر تعقيدا ، لانهم يفقدون مع زوال انوفهم حاسة الشم فلا يكونون قادرين على التمييز بين

اليوم . الذكور هنا لسوء الحظ اكثر عددا من الاناث ، فما ان تطأ قدم المرأة القادمة ارض الجزيرة وقد احيلت الى العزل بحراسة الشرطة حتى يتقاطر الخطاب عليها ، بهدوء اول الامر ، عارضين عليها ما ملكت ايديهم من ممتلكات متواضعة ، فهذا قد انشأ كوخا من القصب ، وهذا قد بنى غرفة من اللبن ، وهذا يملك سريرا ، وهذا صنع كرسيًا صافيا ، ثم هذا يعير صاحبه باذنيه الساقطين ، وهذا يتفاخر بما بقي لوجهه من قسما منسية ، حتى ينشب العراك الدموي العام المعتاد للفوز بقلب القادمة الجديدة ، وليس نادرا ما ينتهي العراك بضحية تفقد حياتها في ذلك الصراع ، بينما تكون عروسة الليلة الجميلة تنظر حولها خائفة دون ان تفهم شيئا مما يجري ، فهي ما تزال جاهلة بعد بتفاصيل هذا العالم العجيب ، اما جاهلا فهو مائل في اعين قاطني الجزيرة مهما كانت قبيحة ، ما دام المرض لم يشوهها بعد . وفي الختام تكون العروسة من نصيب الاقوى بالطبع ، حيث يسارع ، سواء أرغبت المرأة أم لم ترغب ، بعقد قرانه عليها امام الجميع ، حسب الاصول والشريعة ، فللجزيرة قاضيها ايضا ، اختاره قاطنوها من بين المتزوجين القدماء الذين افلحوا حتى هذا الحين بانجاب ذرية وتأسيس عائلة متينة البنين ، استقرت في بيت من الطوف على الشاطئ الجنوبي .

يعرف الجميع ان اقامتهم هنا تطول ، وغالبا ما امتدت اقامة بعضهم مدى الحياة ، لذلك كانوا حريصين على الحصول على زوج يث الدفء في فراش الشتاء البارد ، ويقض معهم نهارات الصيف الطويلة ، بعد ان فقدوا الامل بالشفاء او بموافاة الزوجة او الزوج الى محل عيشهم الجديد والسكنى معهم تحت سقف واحد . اما من ظل وحيدا منهم فقد كان يبني النفس بقدم مريضة جديدة او بالشفاء سريعا والعودة الى احضان زوجته او كنف اهله للتمتع ولو يوما واحدا قبل الممات برائحة البيوت التي يسكنها البشر الاسوياء .

فراش العكاب كان واحدا من هؤلاء ، قدم اليهم قبل اكثر من عام . لكنه لم يصدق ابدا ان بإمكانه البقاء اسير هذه الجزيرة يوما آخر بعد ، وكل يوم يمر كان يفكر فيه انه الاخير ، وان ثمة شيئا خارقا سيحدث بالتأكيد في الغد يغير من واقع هذا الجنون الذي يعيشونه . كان البعض يتعاطف معه ويتفهم معاناته ، فقد مر بهذه الحالة من قبل ، وكان هذا التعاطف يخفف شيئا من غلوائه احيانا ، فانعقدت له اواصر صداقة ومعرفة بالمرض وغيره . كان فراش العكاب بناءً معروفا في المدينة الكبيرة القريبة ، شيد أكثر من عشرين بيتا فيها وطاف يعمل في المقاولات الأتونة الأخيرة وعند أول قدومه الى الجزيرة كان وجهه المستطيل على قدر كبير من الملاحظة ، بشرة صافية ذات سمرة مشربة . بحمرة لطيفة ، عينان لامعتان ، وشارب مستقيم اسود معتنى به ، كل ذلك جعله شبيها بجيلبرت رولاند ، الممثل الأمريكي الذي اعجب به الكثيرون من قبل ، اما شعره الاثيث الاسود فقد غطى ساعديه وما ظهر من صدره كقرود جميل غريب ، حتى ان المرض عجب في البداية اشد العجب لقدومه اليهم ، اذ ان اول ما يتساقط ممن يصابون بالداء شعرهم ، فسأله عن موضع اصابته ، رفع فراش انداك ذراعه اليسرى وكشف له عن ابطه فلاح تحت دغله بقعة تبيست حتى كادت تبيض لجفافها ، استوضح محدثه بعد لحظة :

- وغير هذا ؟

- بقعة ماثلة في باطن القدم اليسرى .

اراد العكاب رفع قدمه ليريها اياها ولكن صاحبه استفسر :

- لا اكثر ؟

- لا اكثر .

- هل تساقطت قشور او غبار منها ؟

- كلا ، ولكنها تحكّاني كثيرا .

ولكن ما حَزَّ في نفس العكاب ليست حوز المرض وآثاره التي راحت تنفث في وجهه بعد امتداد اقامته بينهم اشهرا ثلاثة ، بل غيرة عنيفة على زوجة آية في الجمال - كما اسهب هو في وصفها لبعضهم اكثر من مرة - خلفها وحيدة مع قريبة لها في بيت انتهى قبل فترة من تشييدها لها . كانت الاسابيع الاولى قد مرت ، وتبعتها اسابيع اخرى ، وكان شوق فراش العكاب لزوجته وانتظاره لها يزدادان ويلتهبان في صدره ، ولكنها لم تزره الا بعد مرور فترة طويلة ، وقفت بعيدا في الصوب الاخر وارسلت مع احد الزائرين ما حملته معها من سكاثر وملابس وسكر وشاي ليرمي بها عبر نافذة التومينات اليه . لم يلق فراش العكاب بالا الى ما ارسل اليه ، بل رفع صوته حال لمحها بين الواقفين هناك مناديا اياها لعبور الجسر ، انتهره شرطي مسلح وراح يمنع اقارب المرضى من الاقتراب خشية انهيار الجسر ، فسمع بعد ذلك يطلق عويلا مفاجئا ، متوسلا بها بما يشبه الهذيان للانتقال اليه والسكنى معه في الجزيرة ، طالبا من افراد الشرطة ان يأتوا بها اليه ، ولكن الزوجة الجميلة كانت فزعة من الوجوه المتأكلة التي اطلت عليها فوق الجدران ، ففرت مذعورة دون ان تبس بحرف ..

سأل الممرض فراش العكاب بعد زوال نوبة هذيانه وانهاره :

- ما الذي دهاك ؟ الا تريد ان تصدق ان الماضي مات ولا عود اليه

ثانية ، وان علمنا اليوم غير علمنا امس !

وكان الرجل قد فقد الكثير من حيويته وحضوره فبدا غائم الوجه ،

اجاب وكأنه لم يسمع كلامه :

- قلبي يحدثني ، الامور هناك ليست على ما يرام !

فهم الآخرون فيما بعد ان غيرة العكاب قد بدأت تتحول الى شكوك راحت تنهش صدره ، وكان مع مرور الوقت وتعرّفه على احوال المستعمرة يزداد تدمرا وشكوى ، وكانت الاحوال تثير التدمر والشكوى فعلا حتى عند اكثر المستسلمين لقدرة صمتا ، فالصابون والدواء لم يكونا متوفرين دائما وهما اشد ما يحتاجه المصابون في مفاهم هذا ، والمجلات والجرائد لا يرونها الا صدفة عابرة ، والادارة لا اتعس منها ادارة في الدنيا . حكى الممرض للعكاب مرة تزجية للوقت حكاية اهل مدينة وهران الذين حاصرهم الطاعون داخل اسوار مدينتهم ، نقلا عن رواية قرأها قبل وقوعه ( الممرض ) في اسار هذه المستعمرة الملعونة ، وقارن بين وضعهم ووضع تلك المدينة البائس ، ففاجأه العكاب بعد برهة بقول غريب اذ افصح :

- الطاعون يشبه عدوا يهدد الناس من الخارج بالجملة ، اشبه باسرائيل مثلا . ولكن الجذام في حالتنا يختلف عنه في انه يهددهم فرادى ، كل على حدة ، كأن اسبابه في جيوبنا ، في دواخلنا ، فانا لا نستطيع ان افهم حتى الان : من اين اصابني هذا المرض الخبيث !

تساءل الممرض الذي كان يزداد ميلا للعكاب :

- حقا ، كيف اصابك هذا المرض اللعين ؟

كانا قد خلفنا بيوت المستعمرة وراءهما ، وتجاوزنا حقولا صغيرة جعلها بعض المصابين تحت وصايتهم فكانوا يقومون بتحضيرها لزرع جديد . وسارا ، وقد بلغا حدود الجزيرة ، على الجرف بمحاذاة الماء ، بينما ظل فرات العكاب صامتا فترة طويلة ، حتى قال :

- احد مسؤولي الصحة الكبار كان يتردد على بيتي كل يوم يحاول اقناعي بالاتفاق معه وعدم الاختلاف حول مقابلة انشائية كبيرة ، ولكنني كنت غارقا في اشغالي حتى يافوخي ، بطران ، يوقف سيارته قرب بابنا ويقول : كن معي وانا اضمن لك مردودا اكثر ، لا ذمة له ولا ناموس ، لم يكن يستحي حتى من توجيه النظر بحضوري الى زوجتي حال يراها قادمة من بيت الجيران أو مارة في الحديقة ، عيناه المالحتان لم تعجباني أبدا ، ما انتظرت منها خيرا لا ورب العباد . . .

سكت فرات العكاب برهة طويلة وحاول خلال ذلك تنشيف القبح النافر من انفه بكمه ، وكانت شفتاه قد تورمتا قليلا وتبيستا واتخذتا ذلك اللون الوردي الاغبر الشبيه بلون جلد ابي بريص عند الحمل ، والذي يسبق هجوم المرض عليهما فالفتك بهما تماما ، ولكن صوته كان ما يزال حيويا ، كأنه لم يغادر بعد حدود ذلك العالم المنسي . . . اضاف :

- زارته زوجتي في عيادته شاكية من حكة ادعت انها انتقلت اليها مني ، فجاءني الى البيت مقررا فحصي ايضا ، لارضائي او يعلم الله لأبي سبب ، وكنت اشكو بدوري منذ فترة من حكة تحت ابطي وفي باطن قدمي كما تعلم ، فماذا كانت النتيجة ؟ راح يصيح ويستغيث لاهمالي هذه الحكمة . وخرج من بيتي غاضبا منفعل ، وبعد اسبوع من التحليلات والفحوصات نقلوني الى هنا مخفورا مع الشرطة . واما من اين جاءني هذا المرض ، فهذا ما لم استطع التعرف عليه حتى الان !

كان العكاب يواصل تنشيف قبح انفه . ولكن لا القبح ، ولا الحكمة ، ولا تأكل الانوف والاذان والشفاة ، ما عاد كل ذلك يثير الاشمئزاز الان ، فقد اعتاد الجميع على القبح حتى باتوا يرون فيه شيئا من الجمال ، والمشوه في مجتمع تشوهه بأكمله لا يستطيع أن يرى حقيقة صورته ، ولكن العكاب ما كان ليرضى التسليم بكل هذا ، ذلك ان زوجته الفاتكة الجمال ، التي تعيش هناك ، تذكره دائما ان حاول المرض دفعه للنسيان بمعنى وقيمة الجمال الحقيقي ، ولهذا كان العكاب مشدودا ابدا الى خارج قدر هذه المستعمرة ، يتطلع باستمرار الى خلاص مفاجيء يهبط عليه من لا مكان يعيد اليه صورة ذلك الجمال ، الذي لا يريد أن يعترف انه فقدته الى الأبد . كم تعذب ويكي وشقي لانه لم يستطيع ان يفهم يوما مبرر وجدوى كل ما حدث له ، اهذا جزء تعميره الارض السبخ اذن ، والعرق الذي نزفه كي يسكن الناس في بيوت آمنة جميلة ؟ هكذا كان فرات العكاب يفكر غالبا ، وكان الممرض يهون الامر عليه فيذكره بامتحان الرب للنبي ايوب اذ ابتلاه بهذا الداء ، فكان فرات يجيبه ونبرة يأس ترشح من صوته : من بيني البيوت بيديه لا يمكن ان يصدق ان يجدها قائمة هكذا لوحدها دون جهد من بان ! الحياة التي يعيشها المصابون في مستعمرة الجذام لا تدفع المرء كما يبدو ليفلسف

الامور على هواه ، بل وقد تدفعه الى الجنون او التفكير بالهرب ، ولكن انى له ذلك والجسر ، المنفذ الوحيد ، تحرسه شرطة مسلحة ليل نهار على استعداد لاطلاق النار على اول هارب ! ورغم ذلك صحا قاطنو الجزيرة صباح احد الايام ، واذا بفرات العكاب غائب من بينهم . لم يجتج الامر للتفتيش عنه في ارجاء جزيرتهم الصغيرة طويلا ، او التفكير انه انتحر غرقا في المياه المحيطة بهم ، فقد كان مجمل سلوكه فيما مضى من ايام يشير الى انه قد عزم على الهرب في يوم قريب . .

ثلاثة اسباب كانت تمنع قاطني الجزيرة من التفكير بامر الهرب ، اولها الامل بالشفاء ، ثانيها اليأس من قبولهم في مجتمع الاسوياء ، وثالثها صعوبة الهرب إن لم يكن استحالته . وما ادهش الممرض في هرب فرات العكاب انه الوحيد الذي جرؤ على ذلك ، دونه . لقد فكر الممرض بدوره بالهرب مرارا ولكن فقدان الهدف جعله ينكص عن ذلك دائما ، لقد اعتاد على مجتمع المستعمرة كما كان معتادا على مجتمع الاسوياء قبل ان يصيبه الداء ، فاصبح شأن العيش لديه سواء . اما والعكاب له زوجة جميلة فتلك مسألة اخرى .

. . . مرت ايام الزيارات ، تتعاقب يوما بعد آخر ، ولا اثر لزوجته العكاب بعد فرارها في اول زيارة لها ، فكان الرجل يزداد احتداما . . . ما الذي حدث ؟ ايمن ان تتخلى امرأته عنه هكذا ؟ ايمن ان تكون الحياة متقلبة هكذا ؟ هل كتب عليه اخيرا ان يودع الجمال الذي عشقه دائما الى الابد ؟ انت غادر ايها الجمال ، كما تصفك الاغاني الحزينة غالبا ! اهي النهاية اذن ! . . وكانت ناره تزداد اشتعالا مع الزمن حتى سكب احد القادمين الغرباء من معارفه زيتا على هذه النار يوما فزادها اضطراما والتهابا . . لقد اخبره ان زوجته تلطخ اسمه في المدينة بالوحد ، فالمسؤول الصحي هناك ( الذي نافسه العكاب في المقاولات من قبل ، وكرهه الان حتى الموت ) يتحدث الناس الان عنه ، وعن خلوات له بزوجة العكاب ، في بيتها وفي وضح النهار !

لكأن سربا من العصافير النزقة هجم على باحة بيت قديم فزرق ضاجاً فيه فترة طويلة ، ثم غادره فجأة مخلفا وراءه السكون . . هكذا كان حال الجزيرة بعد اختفاء فرات العكاب ! لقد كفت العجائز الصلعاوات العجفاوات عن تبادل التخمينات حول مصير العكاب ، ومكثن قرب غرف الادارة ، يجلسن في الشمس ، يتسقطن الأخبار عنه ، بينما لم يصدق الممرض تماما ان يكون وراء ارسال فرات العكاب الى مستعمراتهم قصة غدر منذ البداية .

لقد كانت الشكوك تتأكل الممرض منذ قدوم العكاب اليهم واطلاعه على البقعتين الكالختين ، تحت ابطه وفي باطن قدمه اليسرى ، فالرجل كما بدا له لم يكن مصابا بدائهم فعلا ، انما كان يعاني من التهاب جلدي حاد لا اكثر استغلته قوى شريرة للتخلص منه بارساله الى هذا المنفى ، ليخلوها الميدان من بعد لتنفيذ مأزبها الغامضة وراء ظهره ، فهل تتأكد اخيرا هذه الظنون والشكوك ! . .

اضحى هرب العكاب من الجزيرة دافعا لقاطنيها الى التفكير مرة اخرى بأن المظالم في جزيرة الملعونين لا تعدلها مظالم اخرى في مكان آخر من هذه الدنيا ، فتصاعد الاحساس عندهم بوضاعة شأنهم وحقارة الحياة التي

سعيًا وراء التفاصيل التي أصبح امر التعرف عليها جيدًا بهم المرضى ،  
سأل هذا صاحبه العكاب :  
- ألم يكن بالإمكان تجنب ذلك الطريق الصعب الطويل الذي اخترته  
للهرب ؟

- هناك خياران لا غير . اما سلوك هذا الطريق الطويل فالتعرض لمخاطر  
الماء ، او سلوك طريق اقصر فالتعرض لخطر انتباه الشرطة لمحاولة  
الهرب ..

لم يسلم المريض باستحالة الخلاص من هذا الحجر المنسي ، الغارق في  
الصديد والآلام ، واذا كان فترات العكاب قد اعيد اليهم مخفورا مع الشرطة  
مرة اخرى بعد ثلاثة ايام من هربه ، فلا بد ان يستطيع آخر الوصول الى  
مبتغاه في نهاية الامر والتخفي عن الاعين الراصدة الى الابد . ولكن  
العكاب ينفي هذا ، قائلا :

- وجوهنا تثير شهية الآخرين ، فسرعان ما يتعرفون عليك ، فيلتقطونك  
كما تلتقط بكماشة جرة سقطت من منقلة على فرشهم في غرف النوم ..  
ذلك ما حدث معه . كانت الدنيا ما تزال ظلماء جهاء عندما شارف  
العكاب حدود المدينة ، ظل يتخفي في طرقاتها بادىء الامر ، حتى قارب  
بيته فجرا . حام حوله فترة ، ثم جمع شتات نفسه وتقدم الى الباب ، كان  
يخشى ان يكونوا قد شعروا بهربه هناك فانذروا شرطة المدينة لاستقباله .  
طرق الباب مترددا ، ومرت فترة طويلة دون ان يرد احد عليه ، طرقة مرة  
اخرى بتوجس وقوة ، فسمع بعد قليل وقع اقدام خلفه . . كانت ملابس  
العكاب قد نشفت على جسمه بعد ان قام بعصرها جيدا اثر خروجه من  
الماء ، ولكن يشماغه - الذي اعتاد كثيرون منهم لفه حول رؤوسهم  
لاخفاء تشوهاتهم - كان قد فقده اثناء السباحة ، فوقف الى جانب من الباب  
كي لا يفزع بمرآه من يفتح له . . مرت لحظات ، وسمع صوت قريبة زوجته  
يستفسر عن الطارق ، فرد متلججا :

- انا .. فرات ..

ارتبكت قريبة بفتح الباب ، ولكنها ما ان اطلت عليه اخيرا حتى جمدت  
في مكانها وكان صاعقة تحرمتها او جنيا اوشك على استلاب روحها ، فغرت  
فاها واطلقت صرخة مصممة لم يسمع العكاب مثيلا لها في حياته ، ثم  
سقطت مغشيا عليها . لم يجد الرجل مفرا من الهرب خشية اقتضاح امره  
وقدم الجيران ، ففر عن بيته كالكلب المبلول .

ظل العكاب يهيم في الطرقات ، وكان بعض عابري السبيل يوجهون الى  
وجهه المشوه نظرات عطوفة قرفة دون ان يتعرف عليه احد من معارفه  
القدماء ، وكان التعب والسهد والجوع قد طحنته حتى الظهر . ولكن الغيرة  
ما فتئت تنهش في قلبه ، والحيرة بتفسير امر زوجته الجميلة ، ان صح ما  
وصله من انباء ، ظلت تستلب عقله . لقد عاشا معا سنوات سمنا  
وعسلا ، واذا كانا لم يرزقا بطفل طيلة ذلك الوقت ، فهناك من عاش فترة  
اطول ثم قرّت الاعين اخيرا بحبة الروح ، فهل يمكن ان يكون جوهر  
الجمال سريع العطب ، غفن اللب ، هكذا ! واذا كان الامر هكذا حقا  
فهل الدنيا كلها قبح بقبح ؟ .. كلا ، لم يستطع العكاب الاستسلام الى  
هذه الفكرة ، ولعل الزمن الذي قضاه بين اولئك المشوهين حتى كاد يصبح  
واحدا منهم الى الابد هو ما يسيوط افكاره في هذه الدرب . اما وهو يعرف

يعيشون ، ولكن السبيل الى ايصال شكواهم الى اصحاب المقام العالي  
والضمان الحية استغلق عليهم وهم المعزولون عن العالم عشر مرات ، لم  
تعد مطالبتهم الادارة بتحسين ظروف العلاج منذ زمن طويل تجدي ، فهي  
تتصرف رغم ذلك كما تشاء ، ولم يبق امامهم الا الاستسلام لقدرمهم وانتظار  
ما سينجلي عنه هرب العكاب ، الذي تصور البعض سببه ايضا قلة الدواء  
مع تفاقم الداء في جسمه ووجهه خاصة .

ليلة جاءه ذلك النبا الاسود لم ينم فترات العكاب حتى الصباح ، ولم ينتبه  
المريض لشروء العكاب ولتقرح عينيه نهار اليوم التالي ، فقد كان حاله فيما  
سبق من ايام لا يختلف عن هذا الحال ، وفي منتصف الليلة الثانية ترك  
العكاب الجميع نياما ، ونزل الى الماء هدهود من الجانب الشرقي للجزيرة ،  
البعيد عن الجسر الخاضع للحراسة . خوَص في الماء فترة دون اشارة  
صوت ، ثم راح يسبح متجها الى شاطئ الاصحاء ، توقف مرتين خلال  
ثلاث ساعات عند مرتفعين معشوشبين التقاهما في طريقه ، فالتقط انفاسه  
برهة وواصل السباحة بعد ذلك . افاعي الماء لم يكن يخشاها ، وكانت جزر  
صغيرة تتناثر امامه الى اليمين ، كان العكاب يعرف ان الهلاك يترصد له  
هناك ، ثمة غابات القصب ، والمخاضات اللامتناهية ، والخنائير البرية ،  
واساطير الطفولة ، واذا هجمت عليه قرطة الان فماذا تجد في وجهه بعد  
لتلثمهم وقد جاء المرض على ما فيه ؟ انوار المدينة البعيدة توشى السماء  
الظلماء عند الافق المنداح الى اليسار بوشاح رهيف ، كأن سحابة من الغبار  
ستزحف من هناك بعد قليل لتبتلع الدنيا ، تلك الانوار ترسم له معالم  
الطريق الى المدينة ، حاول الا يصدر صوتا اثناء سباحته ، اذا تعب تمدد على  
ظهره في الماء وارخى ذراعيه وساقيه كما كان يفعل ذلك اذ كان صغيرا . في  
احدى المرات ، وكان يسمع اصطفاق الماء في اذنيه ويوجه نظره الى السماء  
شديدة الصفاء ، فالكواكب تلهث متلاصقة بلمعان مخيف لكأنا تحدثت الى  
بعض بلغة سرية كادت ان تكون مفهومة لوعي هارب مثله ، تصور ( بنات  
نعش ) كأنهن على وشك النزول من القبة الشذرية الى الماء لانتشاله منه  
ووضعه الى جانب والدهن ، في التابوت الذي يحملنه فوق رؤوسهن ،  
شعر بالرعب من خيالاته اكثر مما كان يهدده من مخاطر في المياه . ليس الا  
الخوف يقضي على الانسان ، وما اكثُر ما كانت مخاوفه محض اوهام وقت  
كان الخطر الحقيقي كامنا تحت جلده ، . . كانت تفاصيل عملية الهرب  
بدأت تم المرض تفصيلا بعد تفصيل ، فسأل فرات العكاب بلهفة فشل  
في اخفائها :

- وبعد ، م كنت تخاف وانت في سلطان الليل والمياه ؟

فكرر العكاب في الحال :

- الخيالات ، الخيالات اكثر خطرا على الانسان من اي شيء آخر .

كانت احدى قدميه تلامس احيانا اعشابا نابثة في القاع اذ تلبث العكاب  
في الماء . فيستولي عليه خوف طاع ، فكان افاعي قاتلة تحاول الالتفاف  
عليه ، فيضطرب ويضارب الماء بكفيه عجلا هربا من ذلك المكان ، حتى  
كاد لشدة اضطرابه ان يشرف على الغرق ، كادت الخيالات تقتله اكثر من  
مرة ، لكن الخطر الحقيقي كان يكمن في المناطق التي ترتفع فيها اعشاب الماء  
حتى السطح ، تتحول تلك البقع انذاك الى افخاخ حقيقية مهلكة ان لم يجبر  
تجنبها في الوقت المناسب قضت على المرء . . .

الان ، بعد ليل الامس الغريب ، ان ثمة سماء من الصفاء والنقاء تنداح  
عالياً فوق تلك الجزيرة اللعنة ، فقد آمن لحظة ببقاء الجمال وخلوده . .  
قرر العكاب ان يدلف الى بيت احد اصدقائه الخالص ، اجتاحت الان  
رغبة عارمة لألقاء نظرة على نفسه في مرآة ، كان يريد ان يرى صورته  
الجديدة ، يريد ان يعرف حقيقته بعد كل ما حدث وجرى له ، المرايا في  
جزيرة الملعونين محرمة كالمنشورات ، لا احد يريد رؤية قبح نفسه ، ولكنه  
في المقابل يستطيع رؤية قبح الاخرين كل يوم ، بل يبحث عنه في وجه  
غيره ، ويتشفى به ، فذلك يتيح له ان يشعر بنفسه في وضع افضل ، ذلك  
هو حال المرضى ، تواضعوا عليه دون اتفاق ، لم يكن هناك من يرغب  
برؤية التحولات المتحركة على خارطة وجهه ، فكل منهم يود الاحتفاظ في  
ذاكرته بصورته وهي في اوج البريق ، قبل ان يصيبها الداء وامام المرآة في  
بيت صديقه ، دوّخه ما رأى . . يمكن ان يكون هذا وجهه ! احقا ذهب  
ملاحظته وماضيه دون رجعة ! ماذا تبقى لديه اذن وصديقه هذا يؤكد حكاية  
زوجته العادرة الخائنة ؟ ما الذي فعله كي يستحق كل هذه الويلات ! هناك  
ما فعله ، هناك ما فعله ، هناك ما فعله بالتأكيد ، لقد كان مغفلاً ، مغفلاً  
كبيراً ، حين سمح لهم ان يوهموه بذلك المرض ، حين سمح لنفسه ان  
تكون بتلك الطيبة والسذاجة مع ذلك القاتل المخاتل ذي المسوح البيضاء ،  
آه لو امسكت يداه برقبتة ! . . ظل العكاب يتلفع يومين كالصعاليك  
باليشماع الذي منحه صديقه له ، يبيت على الارصفة ، ويحوم تارة حول  
بيته ، وتارة اخرى حول المستشفى ، متخفياً ، متربصاً في الزوايا ، علّه  
يلمح واحداً من اثنين : تلك الجميلة الخائنة . . ذلك المتكرر بملابسه  
البيضاء . . وفي اليوم الثالث شعر انه بدأ يثير الشبهات حوله ، ايقظه احد  
الحراس بهزة خفيفة من قدمه في تلك الليلة وسأله عن امره ، فاخبره  
العكاب بلا مبالاة مواصلاً نومه ، انه قادم من الريف للبحث عن عمل في  
المدينة ، ظل الحارس متلبثاً قرينه برهة ، ثم مضى عنه متردداً . وفي نهاره  
الاخير اقترب من المستشفى فسمع فجأة اغنية كان يذوب تحناناً في لحنها من  
قبل ، تناهت من راديو فتوح في مقهى قريب ، فتضارب في صدره إحساسان  
عنيفان ، يذكرهما احدهما بعالمه الزائل الذي بات قبيحاً الآن ، والاخر يؤكد  
له خلود هذا العالم الحي الجميل رغم كل شيء حوله . وكان عليه ان ينزل  
قصاصه الان بمن افسد ذلك التناغم بين هذين العالمين . كان العكاب في  
تلك اللحظة قد كف عن ان يشعر بجوع او برد ، رغم انه عاش الايام  
الثلاثة الاخيرة ضارباً من مخلوقات الفلاة ، اصبح روحاً هائمة تخلصت  
منذ دهر من اضرار الجسد واوصابه . . واخيراً ، لمح العكاب المسؤول  
الصحي الكبير ينزل من سيارته ، ولم تمر لحظة حتى كان يركب عليه ويمسك  
بتلابيه محاولاً القبض بكمامة من اصابع على حنجرتة . لم يستمر الصراع  
بينهما طويلاً ، فقد هوت ضربة جاسية على رأس العكاب على غير انتظار .  
ولم يفتح عينيه الا وهو مقيد في طريقه الى مستعمرة الجذام ثانية . . .  
سأل فرات العكاب صاحبه المريض على حين غرة ، بعد صمت  
طويل ، وكان يحرق بعينه الملتهبين . اللتين فقدتا اشفارهما منذ زمن  
بعيد ، نحو الماء الراكد الأسن :

- هل كانت زوجة النبي ايوب جميلة ؟

تحنح المريض ، وتأمل ما قال محدثه بهدوء ، ثم اجاب :

- لا ادري ، ولكنني اتصور انها كانت عاهرة ايضاً كما تقول السير  
والاخبار . صمتاً معاً .

خلال ذلك الوقت ، اسقط العكاب باصبعين عن حروز شفثيه شيئاً من  
مزقهها . ثم استفسر من صديقه المريض :

- اما زلت تحتفظ بشفتيك ام ان المرض قضى عليها كالبعض ؟  
كان المريض يشرف على فقدانها ، كحالنا جميعاً ، ولكنه . . اجاب بعد  
فترة :

- ما زلت .  
نظر فرات العكاب اليه ، وقال :

- ارني اياهما ، منذ تعرفنا على بعض وانت تخفي وجهك عني  
باليشماع ، اريد ان ارى وجهك . . .

تذكر المريض من ماضيه ، قبل اصابته بالمرض ، وهو موفد لزيارة هذه  
المستعمرة صحبة احد الصحفيين الشباب ، انه فشل انذاك في اقناع اي من  
المصابين للكشف عن وجهه امام عدسة كاميرا الصحفي الشاب لتصوير  
آثار المرض وتخريباته في ملامح الانسان بغرض إلحاق الصور بالتحقيق الذي  
كان الصحفي يعده عن هذا المكان ، ولم ينشر فيما بعد . . اما الان فلن يجد  
المريض صعوبة كما يبدو في العثور على من يوافق الوقوف امام عدسة  
صحافة ، ما دام هو نفسه قد اصبح واحداً من قاطني هذه الجزيرة . . لقد  
قرر ان يصور نفسه ، وسيحمل بنفسه شكاوى المجذومين إلى من يهيمه  
الامر ، غياب الدواء ، افتقاد الصابون ومستلزمات الشفاء الاخرى ،  
انعدام ذوي الاختصاص ، والاهم : ان يسرد على العالم حكاية فرات  
العكاب الغريبة هذه . وإلا فقد تضيق هذه الجزيرة بساكنيها بعد اعوام ،  
وقت يكون فيه قد فقد شفثيه تماماً والى الابد . اما اذا رفضت ادارات  
الصحف الاستماع اليه كما فعلت مع ذلك الصحفي الشاب من قبل ،  
كشفت هو عن وجهه ومشى في الشوارع ليقرأ الناس ما كتب الداء فيه حتى  
يقبض عليه ، فيهرب ، فيقبض عليه ، فيهرب مرة اخرى . . .  
رد المريض على العكاب متمهلاً :

- سأريك اياه قريباً ، . . انتظر إلى الغد .

مر المساء . المريض ينتظر هبوط الليل . جزيرة الملعونين غارقة في  
سكونها . تمشى حتى حافة الماء . القى نظرة وداع اخيرة الى الورا . كل ما  
حوله خمد وهمد ، الا ذؤابات اشجار الغرب ، كانت تهتز بأناة وبطء .  
هكذا ، تغلغل في الظلام ، راح يسبح بهدوء محاولاً كتم طرشة المياه .  
مرت فترة ، قطع فيها شوطاً طويلاً باتجاه يابسة الاصحاء ، بموازة الطريق  
العام الممتد هناك بعيداً . . . الا ان السكون تمزق وراءه فجأة بصيحات  
أمرأة ناهية تعالت قرب الجسر ، اختلطت في البدء باصطفاق الماء الذي  
تصاحب حوله ، ثم امتزجت بدوي اطلاقات تنالت متعالية في الفضاء ،  
حانت منه التفاتة سريعة الى الخلف ، فرأى في الظلام ما يشبه بلوطات  
محرقة ، ملتبهة ، تنقذف نحوه بجنون . . .